المحاضرة التاسعة (النهضة الفكرية في الجزائر مع مطلع القرن العشرين)

مع بداية القرن العشرين وفشل المقاومة الشعبية المسلحة عرفت الجزائر المستعمر نهضة ثقافية فكرية، من جراء فعالية نشاط الصحافة الجزائرية، بشقيها العربي والفرنسي، ومن خلال الأعلام من الجزائريين على احياء التراث الثقافي الجزائري بتنشيط عملية التأليف والترجمة وإعادة طبع التراث، وتأسيس النوادي والجمعيات الثقافية، والسّعي نحو محاولة توطيد الاتصال الثقافي والفكري بين المغرب العربي ومشرقه من جهة، وأخذ بأسباب التقدم الحضاري من جراء الاحتكاك المتواصل بالثقافة والنظم الحضارية الأوروبية من جهة أخرى. لا سيما بعد إدراك الجزائريين العميق لحجم التأخر والهوة الحضارية التي أوجدها الاحتلال الفرنسي في الجزائر.

ظهرت ملامح هذه النهضة الفكرية في عدة مظاهر وملامح مساعدة ستكون هي اللّبنة الأولى لتطور نشاط الحركة الوطنية الجزائرية ما بين الحربين العالميتين.

أ - السياسة الثقافية للحاكم العام "جونار- Jonnart "

عندما عين "شارل جونار" واليا عاما بالجزائر وبعد فشل سياسة الإبادة والتهجير والتجهيل التي مورست على الجزائريين قبل 1900، حاول الحاكم العام" شارل جونار"، التعامل مع الجزائريين بنوع من المرونة وأوعز إلى أبي القاسم الحفناوي بتأليف كتابه "تعريف الخلف برجال السلف" وإلى "محمد بن أبي شنب" بنشر عدد من كتب التراث ومنها تحقيقه لرحلة الورتيلاني "نزهة الأنظار"1908، وكذلك أمر بنشر أعمال جزائرية وإسلامية قديمة، قررها على المدارس التابعة لفرنسا؛ فقد تقرب من الجزائريين، ودعا لاحترام الإسلام وعين الفقهاء والقضاة في مناصب عليا وأنشأ المطابع وشيد المباني الضخمة، وفق الطراز الإسلامي ووضع حجر الأساس لجامعة الجزائر سنة 1909 وشجع الدراسات العربية وأبدى رغبة في تنظيم التعليم العربي الإسلامي والنهوض به منذ 1900 ؛ إذ أصدر قرار 18 مارس 1905 الذي أعاد تنظيم سير المدارس الإسلامية الشرعية الثلاث (الجزائر، قسنطينة، تلمسان)، ورفع من قيمة المنح المقدمة لطلبتها إلى مبلغ خمسة عشر ألف فرنك. كما خصص خمسة عشر ألف لتشجيع التأليف و طبع المنشورات بالجزائر.

فكان لسياسة الحاكم العام "شارل جونار" الثقافية المتميزة، أن نشطت الحركة العلمية والفكرية ولو كان غرضها جلب طبقة المثقفين إلى فرنسا وجعلهم أداة لبث رسالة فرنسا الحضارية وسط الجزائريين.

ب - أثر زيارة محمد عبده للجزائر 1903

بدأت النهضة الثقافية العربية الإسلامية في المشرق العربي على يد المفكر المصلح "جمال الدين الأفغاني"، وتبناها بعده شيوخ آخرون أمثال "محمد عبده"، "عبد الرحمان الكواكبي"، "محمد رشيد

رضا"، وفي المغرب العربي "الشيخ عبد العزيز الثعالبي" وغيره، ودعوا إلى العودة للإسلام الصحيح وتحرير العقل من الجمود ووحدة المسلمين والتصدي للاستبداد والاستعمار.

ورغبة في الاطلاع على أحوال المسلمين بشمال إفريقيا، زار الشيخ "محمد عبده" الجزائر عام 1903، استغرقت ما بين ثلاثة إلى عشرة أيام، التقى فيها بعض علماء الجزائر منهم "عبد القادر بن سماية (1866-1933)" إمام جامع السفير بالجزائر و"محمد بن زكور" مفتي المالكية، و"محمد بوقندورة" مفتي الحنفية و"محمد بن مصطفى الخوجة (1865-1915)"، ولقد تبنى عديد هؤلاء ، أفكار الشيخ وقد عبر عن ذلك السيد رشيد رضا بقوله: ((... وقد وجد له في الجزائر حزبا دينيا ينتمي إليه من حيث لم يكن يعلم، وإنما الصلة بينهم وبينه مجلة المنار .... ")).

ولقد طلب "ابن خوجة" من الشيخ "محمد عبده" أن لا يذكر فرنسا بسوء في مجلة "المنار"، حتى لا يحرم الجزائريين من فيضها، ويظهر ذلك في قولهم: ((إننا نعده مدد الحياة لنا، فإذا انقطع انقطعت الحياة عنا...)).

ولقد عقد الشيخ "محمد عبده" خلال زيارته مجالس مفتوحة للعامة، كما زار أيضا مدينة قسنطينة. وبناءً على طلب علماء الجزائر قدم الإمام درسا فسر فيه "سورة العصر" وقدم نصائح للجزائريين ، ركز فيها على الجد في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية، وضرورة العمل والكسب وخدمة البلاد بالطرق المشروعة، مع الاقتصاد في المعيشة، وحث الجزائريين على إعطاء الأولوية للتربية والتعليم على السياسة وإلى تحرير العقل وتقويم الفكر وإصلاح المجتمع وتضامن المسلمين. لقد تركت زيارة الشيخ "محمد عبده" صدى وتأثيرا كبيرا في دعم التيار الإصلاحي في الجزائر، وتجسد ذلك في جريدة "ذو الفقار" ، لعمر بن قدور إذ اعتبر محررها الشيخ "محمد عبده" مديرا دينيا للجريدة .

هكذا اعتبرت زيارة الشيخ "محمد عبده "حلقة من حلقات التواصل الحضاري والتاريخي بين الجزائر والمشرق العربي، ومثلت عاملا حاسما في انتعاش الحركة الفكرية الإسلامية في الجزائر، والتي سيثمر تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. كما تأثر الجزائريون أيضا بالنهضة في المغرب العربي وخاصة في تونس، أين ظهرت جمعيات عديدة كالجمعية "الخلدونية " التي تأسست سنة 1896 وهدفت إلى تطوير التعليم والتعريف بضرورة التقدم، وجمعية "الصادقية" التي تأسست في 1905 واهتمت أولا بالتربية و التعليم. وتماشيا مع ما ظهر عند التونسيين من جمعيات، أسس الجزائريون نوادي وجمعيات ثقافية لمقاومة أساليب التغريب والاستلاب الحضاري الأوروبي.

بالإضافة إلى ذلك، عاد بعض المثقفين الجزائريين بعد الحرب العالمية الأولى من المشرق العربي أو من تونس، أين كانوا يواصلون تعليمهم، وكان أغلب هؤلاء قد اطلعوا وتأثروا بحركة النهضة والإصلاح التي كانت قد غيرت مجرى حياة هذه الشعوب، ودون شك أنهم سيعملون على بعث اليقظة العربية والإسلامية بالجزائر في القرن العشرين، ونشر الأفكار الإصلاحية بمختلف الوسائل الممكنة ومن بينها تأسيس الجمعيات والنوادي وفتح المدارس للتعليم.

ج - ظهور الصحافة في الجزائر

1 - الصحافة الكولونيالية:

منذ منصف القرن التاسع عشر ظهرت بمدينة الجزائر باعتبارها عاصمة البلاد، عدة صحف ناطقة باللغة الفرنسية احتكرها الكولون، لتكون لغة اتصال ووسيلة للسيطرة على تفكير الجزائريين ومنها الجرائد الرسمية مثل "المبشر" (1847-1926)، "أخبار الحرب"(1914)، وجرائد الكولون مثل جريدة "الأخبار"(1839-1924)، جريدة التل(1863-1963) ، جريدة "صدى الجزائر- L'Echo d'Alger"(1909-1961) ثم ظهرت جرائد مزدوجة اللغة فرنسية عربية مثل، "المغرب"(1903-1904)، "الهلال"(1906-1907)، "الإحياء"(1907) .

2 - تأثير صحف المشرق في النهضة الجزائرية

تأثر الجزائريون بصحف المشرق الإسلامي مثل "العروة الوثقى، المؤيد، اللواء، المنار"، التي دخلت إلى الجزائر، رغم الرقابة الشديدة التي مارستها عليها السلطة الاستدمارية. وبخصوص صلات المثقفين الجزائريين بالصحافة المشرقية ترجع إلى أواخر القرن التاسع عشر، فقد أشار "لوسياني" مدير الشؤون الأهلية بالولاية العامة في الجزائر، إلى القبول الحسن الذي كانت تلقاه الصحف العربية لدى الجزائريين وذلك من خلال تقرير24 ديسمبر1899: ((... أن الصحف التركية الصادرة باللغة العربية، المعلومات التي تصدر في القسطنطينية وثمرة الفنون التي تصدر في بيروت والسلام التي تصدر في الإسكندرية تدخل إلى الجزائر وتقرأ بشكل واسع)).

ومع مطلع القرن العشرين توطدت الصلات أكثر، بمجيء "شارل جونار"، حيث أمر الولاية العامة بالجزائر سنة 1903 بتطبيق سياسة متعاطفة مع الوجهة الحضارية الإسلامية للجزائر، لجذب الطبقة المثقفة الجزائرية وجعلها أداة لنشر رسالة فرنسا الحضارية وسط الأهالي، كما سمح "جونار" لمجلة المنار بالدخول إلى الجزائر. ورغم الرقابة الشديدة التي فرضتها الإدارة الفرنسية على الصحف المشرقية؛ فقد كانت تصل إلى الجزائر مباشرة من مصر أو تونس، أو عن طريق المغرب أو الحجاج، أو ما تنقله الصحافة الجزائرية ، عبر أعمدتها.

ساهمت الصحافة المشرقية في تعريف الجزائريين بهذه الوسيلة، للدفاع عن حقوقهم أمام تسلط الإدارة الاستعمارية، وفتحت صفحاتها للجزائريين فراسلوا بعض صحف المشرق والمغرب العربيين مثل الصحف التونسية، ومن أبرز هؤلائك "عمر بن قدور" الجزائري مراسل جريدتي "اللواء" بالقاهرة، و"الحضارة" لعبد الحميد الزهراوي بالأستانة قبل الحرب العالمية الأولى. وقد شارك أيضا في أكثر من أربعة عشر دورية عربية قبل الحرب العالمية الأولى.

لقد عالجت الصحف العربية المصرية عدة قضايا جزائرية في صفحاتها؛ ففي سنة 1908 أثارت جريدة اللواء ضجة كبيرة حول القرارات التعسفية التي اتخذها مجلس الوفود المالية حول مسالة التعليم الأهلي في الجزائر، مما أقلق الإدارة الفرنسية في الجزائر. كما نشرت جريدة المؤيد

رسائل تلقتها من الجزائر وشنت حملة عنيفة (1907-1908) ضد الإدارة الفرنسية في الجزائر. وقد كانت الصحف المصرية تدعو للجامعة الإسلامية؛ فهاجمت فرنسا ودعت الجزائريين إلى التصدي للتغريب والانسلاخ، وقد وجد الجزائريون من خلال هذه الصحف لسانا صادقا مدافعا عن الإسلام والعروبة. وكانت الصحف التونسية متنفسا للجزائريين ومنبرا لكتاباتهم؛ فقد كان "عمر راسم" ينشر مقالاته في جريدة "التقدم" طيلة سنتي (1907-1908)، وفي سنة 1903 كتب في جريدة "مرشد الأمة"، ثم أصبح كاتبا في جريدة "المشير"، ونشر بها بعض المقالات الإخبارية. أما "عمر بن قدور" فكان مراسلا لجريدة "التقدم" طيلة سنتي (1908-1909)، تعرض في مقالاته لأوضاع الجزائر السياسية ودافع فيها عن حقوق الشعب الجزائري، ونشر أيضا في جريدة "المشي" بعض مقالاته. ولقد عالج الجزائريون عن طريق الصحافة التونسية بعض القضايا السياسية في تلك الفترة مثل قضية التجنيد الإجباري. وهكذا ساهمت الصحف المشرقية والمغربية مطلع القرن العشرين في نشر الوعي بين الجزائريين وانطلاق نهضة فكرية.

3 - نشأة الصحافة الوطنية

خلال نشاط الصحف الكولونيالية الأوروبية في الجزائر ما بين(1847 - 1900)، حرم الجزائريون من ممارسة النشاط الصحفي وحرية الكلمة، مما دفعهم إلى إنشاء صحف خاصة بهم، بمساعدة مستشرقين وبعض المستوطنين، حتى يتفادوا مضايقات الإدارة الاستعمارية ثم استقلوا بالإشراف عليها مباشرة، وجاء اهتمامهم بالصحافة لبث أفكارهم الإصلاحية والمطالبة بحقوقهم. ومن الصحف التي ظهرت باللغة العربية في قبل الحرب العالمية الأولى يمكن نذكر؛ صحيفة "كوكب افريقيا" عام1905 لصاحبها الشيخ "محمود كحول"، صحيفة "الجزائر" (1908) لعمر راسم عام 1908، وجريدة "الإسلام" (1912 -1913) للصادق دندن وجريدة "ذو الفقار"(1913-1914) ثم جريدة "الفاروق"(1913-1915) للسيد "عمر بن قدور" الجزائري.

حاولت الصحافة الوطنية ذات اللسان العربي قبل الحرب العالمية الأولى التعبير عن مواقفها اتجاه مختلف القضايا الوطنية والإسلامية وإن اختلفت فيما بينها من حيث الآراء بين الوطنيين والمثقفين، وتعرضت إلى التوقيف والمصادرة ، ورغم ذلك استأنفت نشاطها بين الحين والحين ، حتى بعد الحرب العالمية الأولى.

د - إحياء التراث الفكري

إضافة إلى المظاهر النهضوية السابقة، شهدت الجزائر حركة إحياء وبعث للتراث الفكري والحضاري للشعب الجزائري، حيث عرفت بداية القرن العشرين دعوة للنهوض بالتراث الثقافي وكشفه، فظهرت عدة دراسات مؤلفات كتبها جزائريون سلطت الأضواء على قضايا الجزائر التاريخية، ومنها ما أصدره الشيخ "عبد القادر المجاوي" سنة 1877 بعنوان "إرشاد المتعلمين" الذي دعا فيه إلى المسلمين إلى الأخذ بأسباب الحضارة وإعطائهم نوع من حرية التعليم للجزائريين ودعوتهم إلى الاعتزاز

باللغة العربية، وكذلك الشيخ" امحمد بن رحال" الذي قدم تصورات لإصلاح تعليم الجزائريين، والشيخ أبو القاسم الحفناوي سنة 1907 صاحب الموسوعة التاريخية : " تعريف الخلف برجال السلف". كما ساهم الشيخ العلامة" محمد بن أبي شنب" في نشر بعض المخطوطات و ترجمة بعضها إلى اللغة الفرنسية فقدم المؤلفات التالية " الرحلة إلى الحجاز"، أربع معاجم لسير العلماء والأولياء"، وكذا ترجمته لأكثر من 360 عالما مغربيا، إضافة إلى أعمال الشيوخ العلماء "ابن عمار" سنة 1902 و"ابن مريم" سنة 1907 و"الرحلة الورتلانية" سنة 1908. وهي المؤلفات التي طبعت في الجزائر بمطبعة المستشرق "بيار فونتانا" (Pierre Fontana). دون أن ننسى الدور الذي اضطلعت به المطابع مثل المطبعة الثعالبية بالجزائر التي نشرت المصحف الشريف بالخط المغربي وطبعت كتب تراثية تاريخية ودينية منها كتاب "الجواهر الحسان لتفسير القرآن الكريم (تفسير الثعالبي) لعبد الرحمان بن محمد بن مخلوف أبو زيد الثعالبي المكي".

هـ - ظهور الجمعيات والنوادي الثقافية الجزائرية:

عرفت الجزائر في الفترة ما بين 1890 و1914 عددا من النوادي والجمعيات الثقافية التي كانت تؤدي وظيفة المدرسة وخلوة الأحاديث وملتقى اجتماعي للرياضة والاسعاف والكشافة ومقرا للنشاط السياسي وأكثر أسماء هذه المراكز والجمعيات تدل على روها وعلى برنامجها الجزائري مثل التوفيقية، وداداية العلوم الجديدة، نادي التقدم، نادي الشباب الجزائري، جمعية الهلال، نادي الاتحاد والرشيدية وغيرها. ولعله من بين النوادي والجمعيات الثقافية التي لعبت دورا بارزا في ابلاغ الأفكار الإصلاحية إلى المواطنين وشكلت مظاهر النهضة في العقدين الأولين من القرن العشرين نذكر:

- **الجمعية الراشدية**: أسسها شبان جزائريون من خريجي المدارس الفرنسية سنة 1894 وبتأييد من خريجي من بعض المتعاطفين من الجزائريين، وكانت الجمعية تصدر نشرية بالعربية والفرنسية، وبناءً على دورها التثقيفي استطاعت أن تكسب الكثير من الأنصار وتستقطب بنشاطاتها عدد هائل من المنخرطين الذين وجدوا ولمسوا فيها الحير، حيث كانت في كل سنة تعين الفقراء من تلاميذ المكاتب والكسوة والكتب المدرسية، وكانت تدعو المثقفين والأساتذة إلى تهذيب الشعب وارشاده بمحاضراتها الدينية والأدبية والعلمية التي يتعلق موضوعها بتقدم العصر في جميع ميادين العلوم وكانت تلقى محاضرتها كل شهر، كما كانت الجمعية لها فروع في كل أنحاء الجزائر، وكان فرع الجزائر وحده يضم 251 عضوا سنة 1910. وكانت الجمعية تضم من بين أعضائها الدكتور أبو لقاسم بن التهامي والدكتور بن بريهمات. ومن سلسلة المحاضرات التي قدمت سنة 1908 ما يلي:
- محاضرة بعنوان :"حسن التعليم وفوائده" قدمها ابراهيم فاتح بالعربية.
- محاضرة بعنوان: "السل الرئوي" قدمها الحكيم أبو القاسم بن التهامي بالفرنسية.
- محاضرة بعنوان: "آلات الحرب الحديثة وقوة فرنسا العسكرية" ألقاها الضابط لوجلاي بالفرنسية.
- محاضرة بعنوان: "الأدب العربي"ألقا الشيخ "عبد الحليم بن سماية" بالعربية.
- محاضرة بعنوان: "النظام الشرعي في الجزائر" أوضحه القاضي عبد الرزاق الأشراف بالعربية.

- محاضرة بعنوان: "الإسلام يسمح بدراسة اللغات والعلوم بل يوصي بها" ألقاها الشيخ محمد بن سعيد بن زكري بالعربية.
- محاضرة بعنوان: "حضارة العرب الإسلام وبعده" ألقاها الشيخ "عبد القادر المجاوي بالعربية.
- محاضرة بعنوان "الفن العربي" ألقاها شارل دي جالان بالفرنسية.
- محاضرة بعنوان: "النظام السياسي الفرنسي" ألقاها المحامي ابن الحاج بالعربية.
- محاضرة بعنوان: "اختصاصات النور وتطبيقاته ألقاها المعلم عمر فندوز بالعربية.

- **الجمعية التوفيقية**: أنشأت سنة 1908، ثم أعادت النخبة تنظيمها سنة1911 وكان رئيسها الدكتور أبو لقاسم بن التهامي ونائبه محمد صوالح. ولقد أضافت التوفيقية إلى مسألة البر بالتلاميذ والفقراء والقيام بالمحاضرات التي كانت تقدم كل أسبوع دروسا إعدادية في اللغة العربية في كل عشية من يوم الأربعاء والجمعة. فكان الأقبال على تلك الدروس مسرا واستفاد منها كثير جمع غفير من الشبان في ذلك الوقت، سمحت لهم أن أصبحوا يحسنون العربية، ومن جانبها لم تتأخر أيضا وقتئذ المدن الجزائرية الأخرى عن العاصمة في ذلك الميدان فكونت بدورها جمعيات خيرية وتهذيبية وفتحت الأندية مثل نادي صالح باي قسنطينة..

- **نادي صالح باي**: تأسس عام1907 باسم جمعية الدراسات الأدبية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية من قبل جماعة المثقفين، كان يرأسه موظف فرنسي يدعى "عريب Arrip" وعضوية الشيخ "ابن الموهوب" و"مصطفى باشطارزي" و"محمد بن باديس" وغيرهم. وكان يضم 1700 عضوا، وكان له فروعا في العديد من المدن الجزائرية كعين مليلة وعين عبيد ووادي زناتي، قالمة، سوق أهراس وغيرها. أما أهداف النادي فقد كانت نشر التعليم والمساعدة على تحرير الجماهير الجزائرية والتوفيق بين المجموعتين الفرنسية والجزائرية، وبناء على قول "ابن حبيلس" الذي كان عضوا في النخبة عندئذ، فإن أهم أهداف النادي لم تكن لتتناقض مع مبادئ الإسلام بل كانت لإزالة البغض ومعالجة الأمراض الأخلاقية ومحاربة الأنانية والظلم ومساعدة الجزائريين على اظهار مواهبهم الأدبية، ويمكن اعتبار الشيخ "ابن الموهوب" أبرز من كان يضطلع بمهمات هذا النادي حيث كان يحاضر فيه على الناس متناولا بالمعالجة القضايا الأدبية والاجتماعية وكانت هذه المحاضرات تنشر في الجرائد العربية والفرنسية اعجابا بها، ولعل جريدة كوكب افريقيا نالت حصة الأسد في نقل محاضراته وايصالها للجمهور الذي يتعذر عليه التردد على النادي.

ولعلنا قد لا نجانب الحقيقة إن قلنا أن كل من نادي صالح باي والجمعية الرشيدية والجمعية التوفيقية ساهم مساهمة فعالة في يقظة الجزائر خلال هذه الفترة، كون زعمائها ركزوا على التعليم والتقدم والتحرر، وحاولوا أن يطورا المجتمع الجزائري وأن يجعلوا منه مجتمعا حديثا ومتنورا بدل مجتمع قديم تقليدي، فساهمت هذه الأفكار من خلال النادي والجمعيتين في النهضة الفكرية الجزائرية.